Archive of SID

• دریافت ۹۳/۰۵/۲
• تأیید ۹۴/۳/۱۸

جمالية السيميائية فی قصيدة "بانت سعاد"

(دراسة تحليلية و دلالية)

دکتر جهانگیر امیری*
مهدی پورآذر**
نورالدین پروین***

الملخّص

تعتبر لغة الشعر من أبرز و أسمى النماذج الأدبية التی يرتبط فيها اللفظ بالمعنى ارتباطاً، وثيقاً و الميزة الأساسية التی تتّسم بها لغة الشعر أنّ طريقة التعبير فيها طريقةٌ غير مباشرة ما يمنحها حيويّة و ديناميكية على صعيد الدلالة و المضمون و تمكّن السامع أو القارئ من تفسيرها بالطريقة التی تنسجم مع أفكاره و رؤاه. الشیء الذی له دور محوری فی الفهم العميق للنصّ الأدبی هو دراسة علمية لعناصر لغة النصّ و اتجاهاته الأدبية. من هذا المنطلق الاتجاه السيمائی من أهمّ و أبرز الاتجاهات التی يستطيع القارئ فی ظلّها أن يتوغّل فی أعماق النصّ بفكّ الألغاز عن دلالاته السيمائية.

يهدف هذا المقال إلی تحليل قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير، تحليلاً سيميائياً و يكشف عن الجماليات الخفية فی النصّ مستعيناً بالمنهج الوصفی- التحليلی. و من النتائج التی توصلنا إليها عبر المقال أنّ القصيدة تعكس المخاوف و القلق الضاغط على نفسية الشاعر فی ضوء الدّلالات الرمزية و الإيحاءات السيمائية التی شكّلت لُحمة القصيدة. فثمّة تناغم واضح بين ألفاظ القصيدة و محتواها.

الكلمات الرئيسة:

جمالية السيميائية، بانت سعاد، كعب بن زهير، الرسول الأعظم(ص).

* أستاذ مشارک فی قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة رازی. Jaamiri686@gmail.com
** طالب مرحلة الدكتوراه فی فرع اللغة العربية و آدابها بجامعة رازی.
*** طالب مرحلة الدكتوراه فی فرع اللغة العربية و آدابها بجامعة رازی.

www.SID.ir

Archive of SID

١. المقدمة

يتمّ فى الشعر إيصال الرسائل عن طريق الأساليب البيانية و جماليـات اللغـة. بناءً على ذلک أنّ الطرائف المعنوية و الجماليات اللغوية التى تحتويها النصوص الأدبية لا تعدّ من معايبها، بل بالعكس تعتبر من أهمّ العناصـر الجماليـة فيهـا، حيث تزيد من طاقتها الإيحائية و تضفى عليها جمالاً و روعة تبعث على متعة فنية و أدبية لدى السامعين. ذلک لأنّ عملية تأدية المعنى و إيصال الرسالة فى النصّ الأدبى، إنّما تتمّ من خلال فـکّ الألغـاز و الأسـرار المحيطـة بـالنصّ. المداليل التى يحملها النصّ الأدبى تختبئ وراء مجموعة من التأويلات البيانيـة الرامية إلى إثراء الطاقة الخيالية عند المخاطب المتلقـى. أو كمـا قـال شـفيعى كدكنى "الشعر قطار يجرى فى نفق اللغة"(شفيعى كدكنى،١٣٥٨: ١١).

الاتجاه السيمائى بوصفه أحد أهمّ المناهج النقديـة المعاصـرة يرمـى إلـى عملية البحث و التنقيب عن العناصراللغوية و الدلالات البيانية التى تؤدى فـى نهاية المطاف إلى الكشف عن المعانى المحفوفة بالإيحاءات السيمائية. فى هذا السياق أنّ قصيدة "بانت سعاد" تعتبر من أهمّ و أبرز القصائد التى تحمـل فـى طياتها دلالات رمزية و سـيميائية اسـترعت انتبـاه البـاحثين عبـر القـرون و الأعصار(سيد إبراهيم، ١٩٨٦ م: ١٧٥). و المكانة المرموقة التى تحتلّهـا هـذه القصيدة جعلت الأدباء و النقاد يعيرونها بالغ اهتمامهم و كبير عنايتهم. فـأكبّوا علـى دراسة ألفاظها و محتواها. و الشهرة الواسعة التى نالتها القصيدة حثّت الشعراء علـى تقليدها و نظم قصائدهم على منوالها (المحاسنة، ١٤٢٦ ق: ١٧٣).

و قد ذكر المؤرخون لسيرة النبى الأعظم(ص) فى آثـارهم السـبب الـذى حمل الشاعر على نظم قصيدة "بانت سعاد". من هذا المنطلـق تطرّقـت هـذه المقالة إلى دراسة القصيدة اعتماداً على الدراسات الحديثة التى تمُتُّ بصلة إلى الاتجاهات السيميائية. فأمّا هذا البحث فإنه محاولة هادفة إلى دراسة قصـيدة

www.SID.ir

Archive of SID

"بانت سعاد" لكعب بن زهير فی ضوء الاتجاه السيميائی و تأويلاته الموحية ضمن الإجابة عن السؤالين التاليين:

١. ما هی أهمّ السمات البارزة للجمّاليات السيميائية الموحية فی أسلوب كعب بن زهير الشعری؟

٢. ما هی أهمّ و أبرز الأفكار التی نستجليها فی ظلّ الدراسة السيمائية لقصيدة «بانت سعاد»؟

١-١. خلفية البحث

هناک دراسات و كتبٌ قد أنجزت حول السيميائية و قصيدة " بانت سعاد". من أهمّها:

١. الدكتور فرامرز ميرزايی و طيبه اميريان فی مقالتهما "التحليل السيميائی لرواية "رحلة ابن فَطَوَّمَة" العناوين و الشخصيات" يتطرّقان إلی تبيين سيميائية العناوين و الشخصيات فی رواية "رحلة ابن فطومة" و الكشف عن رمزية الرواية فی إطار التحليل السيميائی.

٢. الدكتور احمد پاشا زانوس و زهرا رجب زاده فی مقالتهما المعنونة بـ "نظرة عابرة علی مقدرة ابن هشام النحوية فی شرحه علی قصيدة "بانت سعاد"لكعب " يدرسان بصورة عابرة شخصية ابن هشام العلمية و لاسيّما النحوية و منهجه فی شرح القصيدة.

٣. آفرين زارع و طاهره طوبايی فی مقالتهما المعنونة بـ ***"تحليل سيمائی لرائية ابن العرندس و مقارنتها مع أشعار معاصريه"*** تحاولان البحث عن أسباب نجاح هذه القصيدة خلال دراسة سيميائية تحليلية مقارنة بينها و بين أشعار معاصريه.

٤. الدكتور علی أرشيد المحاسنة فی مقالته المعنونة بـ ***"الدكتور جاسر أبوصفية و قصيدة بانت سعاد دراسة نقديه"*** هذه الدراسة مناقشة لآراء

www.SID.ir

Archive of SID

الدكتور جاسر أبو صفية فى دراسته النقدية عن " بانت سعاد" .

لا شک أن كل البحوث و الدراسات التى تمّت حول القصيدة تكون ذات قيمة و فائدة تمهّد الطريق للباحثين كما استفدنا منها نحن و اعتمدنا عليها فى إعداد مقالتنا هذه، على أية حال فإنّنا نعتقد أنّ قصيدة بانت سعاد مع كثرة و ضخامة الأعمال التى أُعدت حولها إلاّ أنها مازالت تحمل فى طياتها المزيد من جماليات اللغة و الأسرار البيانية التى يمكن إزاحة اللثام عنها فى ظلّ الدراسات السيميائية.

٢. مفهوم السيميائية

السيميائية علم و منهجية ذات نزعة علمية شأنها شأن الرياضيات و الفيزياء، و مشروع هدفه الكشف عن المعانى و كيفية صناعتها (بوخاتم،٢٠٠٤: ١٧٢).لعلّ أهم نموذج من المصطلحات الألسنية السيميائية التى حظيت باهتمام النقاد و الدارسين هو مصطلح السيميولوجية (المصدر نفسه:١٧١).

السيمولوجيا هو علم العلامات أو الاشارات أو الدلالات اللغوية أو الرمزية، سواء أكانت طبيعية و لايتصرف الانسان فيها كصوت الحيوانات أو عناصر الطبيعة أو الأصوات الدّالة على التوجع و الألم مثل آه، آى، و... أم اصطناعية و يتوافق الإنسان فى مدلوله و مقصوده عليها مثل لغة الانسان أو علامات المرور(مجيدى؛ آسيه فولادى،١٣٩١: ٢٨). السيميائية أداة لإثراء القراءة و هى نموذج أنسب لتصور قراءة داخلية دقيقة لبنية النصّ و نسيجه، قراءة لا تتّحد ميكانيزيّتها و استراتيجيتها إلّا بتفكيک أو بتشريح بنية النصّ، فيصبح الإجراء الذى يعتمد على التفكيک و التشريح أساساً جوهرياً لمفهوم القراءة الداخلية (المصدر نفسه: ٢٩)

الشعر عبارة عن رحلة أدبية من معنى إلى معانٍ تتوالى فى تسلسل

www.SID.ir

Archive of SID

دومينويی كلّ معنیً يفتح الطريق لمعنی آخر فی ظلّ دلالات سيميائية قد تغيب معانيها فی غياهب رمزيتها (حق‌شناس و لطيف عطاری،١٣٨۶: ٣٣). يری ريفاتر الشعر كتلة من الرموز السيميائية التی تلتفّ حول أفكار الشاعر التفاف القوقعة حول دود القزّ(پاينده،١٣٨٨: ١۶٧). و فی السياق نفسه لابدّ لتلقی أفكار الشاعر من تجاوز الدلالات الظاهرية و التغلغل فی ما وراء ظواهر الألفاظ حيث تكمن الإشارات السيميائية الخفية و لايتسنّی ذلک إلا من خلال استخدام السيميائية التی تهتم بمطالعة أسلوبية الدلالات الموجودة فی الشعر(مكاريک، ١٣٩٠: ٣٢۶).

٣. القسم التحليلی

٣-١. دراسة القصيدة

استهلّ الشاعر قصيدته بالتغزل على الرغم من أنّه أنشدها بين يدی الرسول الأعظم(ص):

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبی اليَوْمَ مَتْبولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ[1] مَكْبولُ

(زهير، ١٩٩۴: ٢٧)

نلاحظ أنّ الشاعر أعرب فی مطلع القصيدة و بقلب مفعم بالأحزان عن آلامه و أوجاعه لفراق الحبيبة و حنينه إليها. لو أمعنّا النظر إلى المقدمة الغزلية للقصيدة و قمنا بمقارنتها مع المقدمات الغزلية لسائر القصائد الجاهلية لأدركنا أنّ المطلع الغزلی لقصيدة بانت سعاد يختلف بشكل أو بآخر عن غيره، إذ أنّ صاحب القصيدة و هو كعب بن زهير أراد أن يخلق أجواء تتناغم مع مغزى القصيدة و فحواها. فإذا كان الشاعر لابدّ له من استفتاح القصيدة بالمطلع الغزلی فمن الأحرى أن يجعل الاستفتاح الغزلية أداةً فنيّةً تساعد على بلورة مشاعر الحزن و القلق لدى صاحب القصيدة إذ نراه يتحدّث عن حبيبته بنبرة سلبية

www.SID.ir

Archive of SID

تتلائم مع الحالة النفسيّة المزرية التى تنتابه حين مثوله أمام سيّد الرسل (ص).

جرت عادة الشاعر الجاهلى على ذكر الأطلال و الرسوم البالية التى تذكّره بحبيبته الظاعنة، فيبكى متحسّراً على الأيام الماضية التى قضاها معها. ثمّ يتغنّى بجمالها الجسدى و يشبّهها بالظّباء تارةً و بالمها تارةً أخرى لسواد عينيها و سعتهما. لو اعتبرنا المقدمة الغزلية فى القصائد الجاهلية تعبيراً عن المشاعر الدفينة لدى الشاعر إذاً بإمكاننا أن نكتشف السّر فى إتيان كعب بن زهير بالمقدمة الغزلية بالطريقة التى تختلف عن القصائد الجاهلية المألوفة. لاننسى أنّ كعب بن زهير أقدم على نظم قصيدته دفاعاً عن نفسه و حفاظاً على حياته أمام النبىّ(ص) إذ أنّه كان قد طعن أخاه بجير على إسلامه و أهان الرسول الكريم بحيث جعل الرسول (ص) يستبيح دمه. فلمّا أيقن أنّ الخطر استفحل و لم يجد أمامه بدّاً إلاّ التوبة و الإنابة أقبل على الرسول (ص) منشداً بين يديه قصيدته الشهيرة و ربّما كان السرّ فى إختيار الشاعر إسم سعاد لحبيبته الافتراضية اشتقاق الكلمة من السّعد الذى يبعث على التفاؤل و الأمل لدى الشاعر. و لايخفى أنّه كان فى أمسّ الحاجة إليه فى ذلک الظرف الرهيب. يذكر أنّ بعض الباحثين اعتبروا سعاد حبيبة الشاعر الحقيقية و اعتبروا مقدمته الغزلية تقليداً للقصيدة الجاهلية. لكنّنا نقول ردّاً على ما قاله الباحثون بهذا الشأن إنّه يبدو أنّ كلمة سعاد أكثر ممّا تدلّ على عشيقة الشاعر الحقيقية، ترمز إلى مشاعره الداخلية من التطلّع إلى الحياة و البقاء و الأمل فى الهدوء و الأمن. ربّما بإمكاننا أن نقول إنّ كلمة سعاد لها دلالة سيميائية على كرم النبىّ(ص) و عطفه و حنانه قبل أن تكون مجرد اسم لحبيبة الشاعر. و لمّا كان الشاعر فى ذلک الموقف الحرج بحاجة ملحّة إلى عفو النبىّ (ص) استخدم كلمة سعاد لتدلّ على حبيبته أولاً، و ترمز إلى كرم النبىّ(ص) و عفوه ثانياً.

و ممّا يؤيّد هذا الرأى أنّ الشاعر لم ينهمک فى وصف جمال الحبيبة و لم

www.SID.ir

Archive of SID

يتطرّق إلى الوقوف على الأطلال و الدّمن و لم يبک على أهلها و ساكنيها الظاعنين إلى أرض أخرى و لم يتحدّث عن ذكريات أيام الصّبا التى قضاها مع الحبيبة شأن سائر الشعراء الجاهليين. علماً بأنّ هذه المعانى و ما شابهها هى الدّعامة التى تقوم عليها المقدّمة الغزلية فى الشعر الجاهلى. علاوة على ذلک أنّ المفردات التى استخدمها الشاعر فى مستهلّ القصيدة ک*(متبول، متيّم و مكبول)* تحمل شحنة كبيرة من مشاعر الحزن و الاستياء، و هى أصدق دليل على أنّ الشاعر يعيش حالة من القلق و الارتباک نتيجة ذعره و هلعه من موقفه الرهيب.

لذا أراد الشاعر أن يبدأ قصيدته بالمطلع الذى يتجاوب مع مشاعره البائسة و الموقف الخطير الذى يعيشه قبل أن يناله عفو النبى (ص) و عطفه. و من الطريف بمكان أنّ الشاعر ظلّ يستطرد فى البيت الثالث من القصيدة من و صفه لسعاد إلى وصفه لريقها فأوغل فى وصف الريق حتى شغله عن وصف الحبيبة بحيث إنّ المخاطب قد يشعر أنّ الشاعر نسى أو تناسى عشيقته. ما يقودنا إلى القول بأنّ الشاعر ريثما يتغزّل بحبيبته سعاد لا يقدر على التركيز على شخصيتها الحقيقية، إذ إنّه يعانى من الأهوال و المخاوف التى تساوره عند وقوفه بين يدى الرسول الكريم (ص) كشاعر مهدور الدّم:

و ما سعادُ غداةَ البينِ إذ برزت إلّا أغَنَّ غضيضُ الطرفِ مكحولُ
تَجْلُو عَوارِضَ ذى ظَلْمٍ إذا ابْتَسَمَتْ كأنَّهُ مَنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلُولُ

(المصدر نفسه:٢٧)

نُعيد إلى الأذهان أنّ الأوصاف التى وصف بها الشاعر حبيبته سعاد فى بدايته الغزلية، تكتسى طابعاً رمزياً إذ تلک الأوصاف *(أغنّ، غضيض الطرف و مكحول)* تدلّ على وجود حالة من انجذاب و انبهار فى نفس الشاعر تجاه النبىّ (ص) أكثر ممّا يدلّ على أوصاف واقعية فى الحبيبة، فإنّها تعبّر تعبيراً سيميائياً عن مدى شغف الشاعر و ولوعه بالعفو النبوىّ مع الأخذ بنظر الاعتبار

www.SID.ir

Archive of SID

أنّ كلمة "غضيض الطرف" مأخوذة من "غضّ الطرف" و هی تناسب المقام حيث تدلّ على العفو و الإغضاء. فقد اتّضح ممّا سبق أنّ كعب بن زهير أفصح عن حالته النفسيّة المزرية بكلماتٍ تحيطها الدلالات السيمائية و ممّا يقوّی و يؤيد هذه الرؤية أنّ الرسول الأعظم (ص) لم يلُم كعباً على مقدمته الغزلية؛ ما يدلّ على تجاوب النبی (ص) مع نفسية الشاعر المضطربة و ما يجول بداخله من المخاوف و الأهوال. بناءً على ذلک فإنّنا لم نبالغ إذا عبّرنا عن القصيدة بأنّها منظومة فسيفسائية من الدلالات السيميائية يوحيها الشاعر إلى السّامع فيأخذها معه إلى عالم الأسرار و الألغاز(فرای[٢]،١٣۶٣: ۶٢).

ممّا يسترعی الانتباه أنّ الشاعر أعرض من البيت السادس عن أوصاف سعاد الجسديّة و توجّه إلى صفاتها الرّوحية فوصفها بعدم الوفاء و الكذب و الظلم و التّقلب ممّا يشعرنا بأنّ سعاد و الصفات التی تتّسم بها هی ترجمة سيمائية عن الهموم و الهواجس و القلّق الذی حلّ بالشاعر إثر إباحة الرسول (ص) دمه. فالشاعر كان يعيش حينذاک حالة مزدوجة من الخوف و الرجاء. الخوف من عقوبة النبی(ص) الذی أهانه و انتهک حرمته، و الرجاء إلى عفوه نظراً لشخصيته الكريمة و خلقه العظيم و شريعته السهلة السّمحة.

و نُعيد إلى الأذهان أنّه لم يكن من عادة الشعراء الجاهليين وصف الحبيبة بالصفات الذميمة مهما بلغ جورها للعاشق المتيّم. و لكن عدل كعب عن هذه العادة فنلاحظ فی الأبيات التالية حيث وصف كعب بن زهير عشيقته سعاداً بالأخلاق الذميمة من الكذب و الإخلاف و تلوّن المزاج و عدم الوفاء بالحبّ.

أكْرِمْ بِها خُلَّةً لَوْ أنَّها صَدَقَتْ ... مَوْعودَها أو لَوَ أنّ النُّصْحَ مَقْبولُ
لكِنَّها خُلَّةٌ قَدْ سِيطَ مِنْ دَمِها ... فَجْعٌ و وَلْعٌ و إخْلافٌ و تَبْديلُ
فما تَدومُ عَلَى حال تكونُ بِها ... كَما تَلَوَّنُ فی أثْوابِها الغُولُ
وما تَمَسَّكُ بالوصلِ الّذی زَعَمَتْ ... إلّا كَما تُمْسِكُ الماءَ الغَرابيلُ
فلا يَغُرَّنْكَ ما مَنَّتْ وما وَعَدَتْ ... إنَّ الأمانِیَّ والأحْلامَ تَضْليلُ

www.SID.ir

Archive of SID

كـانَتْ مَـواعيدُ عُــرْقوبٍ لَهـا مَـثَلا ومـــا مَـواعِـــيدُها إلاَّ الأبـــاطيلُ
أرْجـو وآمُـــلُ أنْ تَـــدْنو مَـــوَدَّتُها ومـا إخـالُ لَـدَيْنا مِـــنْكِ تَـــنْويلُ

(زهير، ١٩٩٤: ٢٩-٢٨)

من أبرز الإيحاءات السيمائية التى نلمسها فى الأبيات السابقة هى أنّ كعباً يكتنفه شعور الخيبة و اليأس، حيث أدّى إلى قطع علاقته بسعاد لأنّها لـم تعـد تبعث على الطمأنينة و الاطمئنان فى نفس الشاعر" بل بالعكس أعطته الشعور بالتضليل و الخداع "إنّ الأمانى و الأحلام تضليلٌ" إنّ اسـتخدام الشـاعر أداة "لو" الشرطية الإمتناعية فى بيت واحد من قصيدته كما أسلفناه سابقاً « أكْـرِمْ بِـها خُـلَّةً لَـوْ أنَّهاصَدَقَتْ» يحمل دلالة سيميائية على تشاؤم الشاعر و خيبـة أمله حيال سعاد التى خالطت أوصاف الجفـاء و الكـذب و الإخـلاف دمهـا و لحمها فأصبحت تجرى فى عروقها مجرى الدم.

يمكن اعتبار التشبيهات الرائعة التى وظفها الشاعر فى القصيدة محاولة منـه للتعبير عن حبّه و إخلاصه للرسول الأعظم(ص) فى ضوء المـنهج السـيميائى فإنّه عندما شبّه سعاد بالغول "كما تلوّن فى أثوابها الغـول" أو بالغربـال الـذى لايحتفظ بالماء "كما تُمسك الماء الغرابيل" أو بالعرقوب الذى أصبح مثلاً فـى الإخلاف "كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً" لايريد إلّا الابتعاد عن حبيبة خيالية و وهمية "سعاد" و الإقتراب إلى حبيبة حقيقيـة النبـىّ الأعظـم (ص). يمكـن القول إنّ سعاد هى صورة رمزية عن شخصية الشاعر الجاهلية التـى نشـأت و ترعرعت على الكذب و الإخلاف و النفاق و الاستعلاء.

لا يمكن لشاعرنا زيارة الرسول (ص) و الاجتماع معه إلّا إذا تخلّـى عـن شخصيته الجاهلية وصار مستعدّاً للقبول بشخصيّة جديدة يتحلّى بها فـى ظـلّ شريعة النبى (ص) النابضة بالخُلُق السامية. ركب شاعرنا ناقتـه الطيعـة و بـدأ رحلة طويلة شاقّة عبر الصحارى و الفلوات للوصول إلى الحبيب و بإمكاننا أن

www.SID.ir

Archive of SID

نفسّر هذه الرحلة أشواطاً رمزيةً قام بها كعب للتخلّص من شخصيته الجاهلية و التقمّص بشخصية إسلاميّة فى نهاية المطاف:

أمْسَتْ سُعادُ بِأرْضٍ لايُبَلِّغُها إلاَّ العِتاقُ النَّجيباتُ المَراسِيلُ

(زهير، ١٩٩٤: ٣٠)

طالما يكون الشعر لغة الرمز و السيمائية يعود بالإمكان اعتبار كلّ لفظة منها ذات معانٍ متعدّدة تنمّ عن رصيد معنوى ضخم لايمكن تفسيره إلّا فى ضوء الدراسات السيمائية. فإنّ الشعر محاولة أدبية لخلق معانٍ مختبئة وراء رموز دلالية لا نتمكّن من خوض معانيها إلّا بفكّ الطلاسم عن رموزها و ألغازها و بالإعتماد على الاتجاه السيمائى(أحمدى،١٣٨٠: ١٢١). لو أردنا إزاحة الستار عن رمزية الناقة فى البيت السابق يمكننا القول بأنّ الناقة التى امتطاها الشاعر فى رحلته إلى حضرة الرسول (ص) هى عبارة عن قلب الشاعر.كما نستطيع القول إنّ الترحال الذى يتحدّث عنه شاعرنا فى المقطع السابق لم يكن سفراً مادّياً على أرض الواقع بل إنّه سفر رمزى تمّ فى داخل الشاعر. و كما أنّه يتمّ استخدام الناقة فى الأسفار المادية يستخدم القلب أيضاً فى الأسفار المعنوية. ثمّ إنّ المسافة الشاسعة التى قطعها الشاعر أثناء سفره الرمزىّ ترمز بدورها إلى انتقال الشاعر من حالة التيه و الضياع إلى حالة الوعى و اليقظة.

تَرْمِى الغُيوبَ بِعَيْنَىْ مُفْرَدٍ لَهَقٍ إذا تَوَقَّدَتِ الحُزَّانُ[٣] والمِيلُ

(المصدر نفسه)

من الملاحظ أنّ كعباً شبّه ناقته فى البيت السابق بالمها التى تقطع الطرق الوعرة بمفردها فهى رغم أنّها لاتصطحب القطيع و لكنّها لا تضلّ الطريق و ذلک لقوّة ذكائها وحدّة بصرها. ربّما نستطيع القول و فى ضوء الدراسة السيمائية للبيت أنّ المها المفردة التى تخلّفت عن القطيع هى الشاعر نفسه. علماً بأنّ كلمة مها هنا تجسيد للحالة النّفسية التى يعيشها الشاعر؛ فإنّه فى طريقه

www.SID.ir

Archive of SID

إلی حبيبه رسول الله (ص) أشبه ما يكون بالمها المنفردة التی تجتاز الهضاب و الوهاد أضف إلی ذلک أنّ تشبيه الشاعر نفسه بالمها الضائعة يحمل دلالة رمزية علی "حالة القلق و الارتباک التی يعيشها الشاعر أثناء ترحاله إلی الحبيب محمّد(ص) فی ظلّ الإيحاءات السيميائية"(محمد،١٩٩٦: ٦٦-٦٥).

و من الملفت للنّظر أنّ لكلمة "الغيوب" الواردة فی البيت دلالة مزدوجة تدلّ من جهة علی مجاهل الأرض و متاهاتها التی تختفی عن النظر عادةً و من جهة أخری توحی بالمستقبل المجهول الذی يترقّبه الشاعر خائفاً و هو فی سبيله إلی الرسول الأعظم (ص) الذی توعّده و أهدر دمه و لكن يرجو عفوه و رحمته فی الوقت نفسه؛ و هذا التفسير السيمائی للبيت يتناسق مع حالة الشاعر النّفسية و الشعورية أجمل تناسقٍ(المحاسنة،١٤٢٦: ٥٠٤).

مازالت الأبيات تصوّر الحالة النفسية المرتبكة التی سيطرت علی الشاعر تصويراً قائماً علی الإيحاءات السيمائية، فالشاعر رسم فی الأبيات السابقة صورة الإبل التی فتحت ذراعيها و هی تركض بأقصی سرعتها إلی المأوی. فالصورة التی ارتسمت فی مخيلة الشاعر بعد رؤية الناقة هی صورة تنطبق علی المرأة الثكلی التی ترفع يديها لتمزّق بهما جيبها و تلطم خدّيها فی عويل و بكاء شديدين تشاركها فيهما نساء ثواكل. لم يستخدم الشاعر هذا التشبيه عن طريق الصدفة، بل إنّ الظروف الصعبة التی يمرّ بها الشاعر تبعث فی نفسه حالة من الذعر و القلق تنسجم مع الصورة التی وصفها فی أبياته. إذ أنّ الشاعر عادةً ما يلتقط من الصّور التی يشهدها علی أرض الواقع ما يتواكب مع الأنغام التی تعزفها قيثارة نفسه. و فی هذا السياق يمكن القول إنّ صور الخيال التی و ظّفها كعب فی قصيدته "بانت سعاد" تتلائم مع ما يختلج بداخله من مشاعر الخوف و الأمل و الحزن و السّرور التی انصهرت فی أتون نفسه:

كأنَّ أوْبَ ذِراعَيْها إذا عَرِقَتْ وقد تَلَفَّعَ بالكورِ العَساقيلُ

www.SID.ir

Archive of SID

يَـوْماً يَـظَلَّ بـه الحِرْبـاءُ مُصْـطَخِماً كـأنَّ ضـاحِيَهُ بـالشَّمْس مَـمْلولُ
وقـالَ لِـلْقوْمِ حـادِيهِمْ وقـدْ جَعَلَـتْ وُرْقَ الجَنادِبِ يَرْكُضْنَ الحَصَى قِبِلُـوا
شَـدَّ الـنَّهار ذِراعـا عَيْطَـلِ نَصَـفٍ قـامَـتْ فَـجاوَبَها نُـكْدٌ مَـثاكِيلُ
نَـوَّاحَةٌ رِخْـوَةُ الـضَّبْعَيْنِ لَـيْسَ لَهـا لَـمَّا نَـعَى بِـكْرَها النَّـاعونَ مَعْقـولُ

(زهير، ١٩٩٤: ٣١)

سبق أن قلنا بأنّ الحالات النفسيّة التى عاشها كعبٌ شكّلت النـواة الرئيسـة لقصيدته الشهيرة بانت سعاد فكما لاحظنا أنّ صورة الخوف و القلق كانت أبرز و أوضح فى الأبيات الأوائل من القصيدة لكنّنا نشاهد من البيت الثالـث عشـر تحوّلاً أساسياً فيها هو أنّ حالات من الأمل و الثقة باتت تسيطر عليها، فنـرى أنّ الاحساس بالأمن و الإطمئنان أخذ من نفس الشاعر كلّ مأخذ بحيث إنّه لم يعد يشعر بالضجر و الملل حيال ما قاله الوشاة فيه بـل عبّـر بلغـة صـارمة و صريحة عن أمله و تفاؤله بالمستقبل المشرق:

يَسْعَى الـوُشاةُ بجَـنبَتيْها و قَـوْلُهُمُ إنَّـک يـا ابْـنَ أبـى سُلْمَى لَمَقْتـولُ
وقـالَ كُـلُّ خَـليلٍ كُـنْتُ آمُـلُهُ لا أُلْـهِيَنَّکَ إنِّـى عَـنْکَ مَـشْغولُ
فَـقُـلْتُ خَـلُّوا سَـبيلِى لاَ أبـا لَكُـمُ فَـكُلُّ مَـا قَـدَّرَ الـرَّحْمنُ مَفْعـولُ
كُـلُّ ابْـنِ أُنْثَى وإنْ طالَـتْ سَـلامَتُهُ يَـوْماً عـلى آلَـةٍ حَـدْباءَ مَحْمـولُ

(المصدر نفسه:٣٧).

ردَّ الشاعر فى الأبيات السابقة على مقالة السعاة بأسـلوب حكـيم و قـويم ينبئ عن إيمانه و ثقته بما خبّأ له الرحمن"فقلتُ خلّوا سبيلى لا أبا لكم/ فكلّ ما قدّر الرحمن مفعولُ" ففى كلمة "الرحمن" التى وظّفها الشاعر دلالة سيمائية قوية على حالة الاستقرار و رباطة الجأش التى استولت على نفسه.

لدى بعض الأدباء لغة الشعر لغة تصويرية أكثر مـن كونهـا تعبيريـة، فإنّهـا تجسّد و لاتبيّن(أحمدى،١٣٨٠: ٥٢٦). و بعبارة أدقّ و أصحّ أنّ الشعر هو مـا يوحيه إنسان إلى إنسان(فراى،١٣٦٣: ٦٢). كما نلاحظ فى الأبيات التاليـة أنّ

www.SID.ir

Archive of SID

الشاعر ذكر لقب النبىّ الأعظم (ص) دون أن يصرّح باسمه الشريف. ما يلمح إلى أنّه أراد الاعتراف برسالة النبىّ (ص) و نبوّته. زد على ذلک أنّ الشاعر وظّف فى البيت الثالث بدل من اسمه المبارک موصول "الذى" و هو حسب ما أفاده البلاغيون يؤكّد المعنى الذى تحتوى عليه صلته و هو فى البيت، تأكيد على رسالة الرسول(ص) التى أقرّ بها الشاعر فى البيت السابق:

أُنْبِئْتُ أنَّ رَسُولَ الله أوْعَدَنى ... والعَفْوُ عَنْدَ رَسُولِ الله مَأْمُولُ
وقَدْ أتَيْتُ رَسُولَ الله مُعْتَذِراً ... والعُذْرُ عِنْدَ رَسُولِ الله مَقْبولُ
مَهْلاً هَداکَ الذى أعْطاکَ نافِلَةَ ... الْقُرْآنِ فيها مَواعيظٌ وتَفْصيلُ
لا تَأْخُذَنِّى بِأقْوالِ الوُشاة ولَمْ ... أُذْنِبْ وقَدْ كَثُرَتْ فِىَّ الأقاويلُ
لَقَدْ أقُومُ مَقاماً لَو يَقومُ بِه ... أرَى وأسْمَعُ ما لَو يَسْمَعِ الفيلُ
لَظَلَّ يَرْعُدُ إلَّا أنْ يكونَ لَهُ مِنَ ... الَّرسُولِ بِإذْنِ الله تَنْويلُ

(المصدر نفسه:٣٨-٣٩)

نرى أنّ الشاعر فتح فى البيت الرابع فصاعدا نوافذ أمام القارئ ليُشاهد من خلالها مايعانيه من حالة الكبت و الإحباط نتيجة ما سمعه من ألسنة الواشين. إلّا أنّ شاعرنا استمدّ من الفيل ليجسّد ما فى نفسه من المأساة تأكيدا على أنّ الفيل مع أنّه أكبر و أضخم حيوان على وجه الأرض لايحتمل ما يواجهه الشاعر لو كان مكانه.

نستطيع القول إنّ قصيدة "بانت سعاد" محاولة ناجحة للتعبير عمّا يراود الشاعر من عواطف الحزن و الأسى. إذا مدح الشاعر الرسول(ص) فإنّ مدحه لم يكن غرضاً رئيسياً بل جاء ضمن الاعتذار الذى قدّمه للنبىّ محمّد(ص). فالقصيدة يمكن إعتبارها قصيدة إعتذارية أنشدها كعب فى حضرة الرسول(ص) يستعطى عفوه. فإنّه أراد أن يمهد الطريق و يوفّر الأرضيّة للاعتذار بين يدى الرسول(ص) عمّا فعله من إساءة له و للإسلام. كأنّه أراد أن يصوّرحالة الندم و التوبة التى خيّمت على نفسه أثناء مثوله أمام الرسول (ص).

www.SID.ir

Archive of SID

فكلّ ما نطق به كعبٌ فی رحاب الرسول (ص) يصبّ فی سياق الاعتذار لعلّ الرسول يتجاوز عن ذنبه.

استخدم كعب مواهبه الشعرية كلّها و استجمع خياله الطاغی لكی يصوّر للسامع المشهد الذی يزور فيه الرسول الكريم (ص) تصويراً صادقا. فاستمدّ كعب من خلفيّته الجاهلية و شبه النبی محمداً (ص) بالأسد الشجاع الذی يفوق أقرانه فی حلبة السباق. مما يزيد من أبهة الأسد وهيبته عند السامع أنّه توجد فی عرينه أشلاء متناثرة للوحوش التی اغتالها و تتغذّی منها أشباله دائماً. لا يجرؤ أحد مهما كان جسوراً و قوياً أن يمرّ بأجمة الأسد لأنّه سرعان ما يلتهمه كوجبة شهيّة له. افتنّن الشاعر فی تصوير الأسد بالأوصاف التی تدلّ علی شدة بأسه و قوة عزمه ليعبّر عن موقفه الصعب عند لقاء الرسول الأمين (ص):

لَذاكَ أَهْيَبُ عِنْدی إذْ أُكَلِّمُهُ ... وقيلَ إنَّكَ مَنْسوبٌ ومَسْؤولُ
مِنْ خادِرٍ مِنْ لُيوثِ الأُسْدِ مَسْكَنُهُ[٣] ... ببَطْنِ عَثَّرَ غِيلٌ دونَهُ غيلُ
يَغْدو فَيَلْحَمُ ضِرْغامَيْنِ عَيْشُهُما ... لَحْمٌ مَنَ القَوْمِ مَعْفورٌ خَرادِيلُ
إذا يُساورُ قِرْناً لا يَحِلُّ لَهُ ... أنْ يَتْرُكَ القِرْنَ إلاَّ وهَوَمَغْلُولُ
مِنْهُ تَظَلُّ حَميرُ الوحشِ ضامرةً ... ولا تَمَشَّی بَواديهِ الأراجيلُ
ولا يَزالُ بِواديهِ أخُو ثِقَةٍ ... مُطَرَّحَ البَزِّ والدَّرْسانِ مَأْكولُ

(المصدر نفسه: ۴۰)

يری كعب أنّه لامناص له من صولة هذا الأسد الذی يرمز إلی النبیّ الأعظم (ص) إلّا إذا حصل علی عفوه و كرمه فيمدّ يده إلی الرسول (ص) طالباً بمصافحته فصافحه النبی (ص) و هو يغضّ الطرف عمّا فرط من الشاعر من جهالة و إساءة فما إن وضع كعب يده فی يد الرسول (ص) حتی امتلأ كيانه بالاطمئنان و الثقة و الأمان:

حَتَّی وَضَعْتُ يَمينی لا أُنازِعُهُ ... فی كَفِّ ذِی نَغَماتٍ قِيلُهُ القِيلُ

(المصدر نفسه: ۴۱)

www.SID.ir

Archive of SID

و ما يدلّ على نجاح الشاعر فی قصيدته هو توظيفه لمشاعره الصادقة من جهة و الإيحاءات السيمائية التی وظّفها فيها من جهة أخرى. فإذا نظرنا إلى القصيدة من رؤية سيمائية فبإمكاننا أن نعتبرها قصيدة ناجحة موحية؛ إذ: «أنّها أثّرت فی نفس الرسول الكريم (ص) إلى درجة حملته على الإعفاء عن الشاعر الذی طالما أساء إليه و إلى أصحابه» (الشرقاوی، ۱۹۹۱: ۲۰۷). و ممّا زاد من رمزية القصيدة أنّ النبیّ (ص) أعطى شاعرنا بردته فور انتهائه من إنشاد القصيدة و هی أفضل و أثمن ما يمكن أن يعطى للشاعر لما فيها من قدسيّة وطهارة و روحانية. و البردة هنا لاتخلو من دلالة سيميائية إذ يمكننا تفسيرها من منظور سيميائی بأنّها صفحة جديدة مشرقة لحياة الشاعر بعد أن خلّف و راءه فترة مظلمة من حياة الكفر و الضلال.

۴. نتائج البحث

لقد توصّلنا من خلال دراستنا السيمائية لقصيدة "بانت سعاد" إلى نتائج منها:

۱. المقدمة الغزلية التی بدأت بها القصيدة تتجاوب و موضوعَ القصيدة الذی يصبّ فی سياق الاعتذار.

۲. المعانی و الدلالات التی تحملها قصيدة "بانت سعاد" هی تجسيد تامّ للحالة النفسيّة المزرية للشاعر إثر تهديد الرسول الأعظم حياته و إهدار دمه، و ذلک فی ظلّ الدلالات السيمائية التی صاحبت القصيدة.[۱]

۳. القصيدة تعكس المخاوف و القلق الضاغط على نفسية الشاعر فی ضوء الدّلالات الرمزية و الإيحاءات السيمائية التی شكّلت لُحمة القصيدة. فثمّة تلائم واضح بين ألفاظ القصيدة و دلالاتها.

۴. تردّدت فی القصيدة ألفاظ تدلّ على إيمان الشاعر بالإسلام و اعترافه برسالة الرسول (ص) بعد إنكاره لها و من أبرزها: الإسلام، القرآن، محمد

www.SID.ir

Archive of SID

رسول الله (ص) و ماشابهها.

۵. تأثرت الأبعاد الشكلية للقصيدة بمضامينها و الأجواء المحيطة بها بحيث باتت تختلف عن شكلية القصيدة الجاهلية أحياناً كما عالجناه عند دراستنا للمقدمة أو ما تعلّق بوصف الإبل و الأسد و التّرحال و الحبيبة و غير ذلک من الكلمات المتناسقة فی منظومة فسيفسائية رائعة تخدم الأفكار الرئيسة التی رسمها كعب للقصيدة.

۶.يمكن اعتبار قصيدة بانت سعاد صورة واضحة عن الحالات النفسية للشاعر عند مواجهته الرّسول الكريم (ص) للتعبير عن حالة النّدم و الاعتذار فی رحابه المبارک.

۶. يمكن اعتبار القصيدة فی ضوء الرؤية السيميائية مرآة صافية تعكس نفسية الشاعر المضطربة و المواقف العصيبة التی يمرّ بها.

۷. البردة التی أعطاها الرسول الكريم (ص) للشاعر كجائزة ترمز إلی طیّ صفحة الماضی و فتح صفحة جديدة من الحياة الكريمة فی أجواء الأيمان بالله و رسوله الأعظم.

الهوامش:

۱. و جاء فی بعض الروايات بدل لم يفدَ «لم يُجزَ».

۲. Frye.

۳. الحُزّان: واحدها حزيز و يقال أحزَّة و حُزّان. الأرض الغليظة و الوعرة.

۴. و جاء فی رواية أخری: مِن ضيغمٍ من ضِراء الأُسد مُخدَرُهُ.

www.SID.ir

Archive of SID

۵. المصادر و المراجع

۱. احمدی، بابک، (۱۳۸۰)، ساختار و تأویل متن، الطبعة الخامسة، تهران: نشر مرکز.

۲. .....(۱۳۷۴)، حقیقت و زیبایی، تهران: نشرمرکز.

۳. بوخاتم، مولای علی، (۲۰۰۴)، مصطلحات النقد العربی السیماءوی"الإشکالیة و الأصول و الامتداد"، دمشق: منشورات اتحاد الکتاب العرب.

۴. سید ابراهیم، محمد، (۱۹۸۶)، قصیدة بانت سعاد و أثرها فی التراث العربی، بیروت: المکتب الاسلامی.

۵. الشرقاوی، احمد اقبال، (۱۹۹۱)، بانت سعاد فی إلمامات شتّی، بیروت: دار الغرب الاسلامی.

۶. شفیعی کدکنی، محمد رضا، (۱۳۵۸)، موسیقی شعر، تهران: انتشارات توس.

۷. فرای، نورتروپ، (۱۳۶۳)، تخیل هوشمند، المجلد الأول، تهران: مرکز نشر دانشگاهی.

۸. محمد ، محمد سالم، (۱۹۹۶)، المدائح النبویّة حتّی العصر المملوکی، دمشق: دارالفکر.

۹. مکاریک، ایرنا ریما، (۱۳۹۰)، دانش‌نامه‌ی نظریه‌های ادبی، تر: مهران مهاجر و محمد نبوی، تهران: نشر آگاه، الطبعة الرابعة.

۱۰.زهیر، کعب حنا، (۱۹۹۴)، دیوان کعب بن زهیر، المحقق: نصرالحتّی بیروت: دارالکتاب.

المقالات

۱۱. پاینده، حسین، (۱۳۸۸)، نقد نشانه شناختی شعر زمستان، نشریه فرهنگ و هنر گوهران، شماره: ص۲۱-۲۲

۱۲. حق‌شناس، محمد علی، لطیف عطاری، (۱۳۸۶)، نشانه‌شناسی شعر، مجله دانشگاه تهران دانشکده ادبیات و علوم انسانی، دوره۵۸، شماره:ص۳.

۱۳. مجیدی، حسن و آسیه فولادی، (۱۳۹۱)، التحلیل السیمیائی «الناس فی بلادی» لصلاح عبدالصبور، مجله دراسات الأدب المعاصر، السنة الرابعة، العدد السادس عشر: صص۴۹-۲۷.

۱۴.المحاسنة، علی ارشید، جاسر ابوصیفة،(۱۴۲۶)، قصیدة بانت سعاد دراسة نقدیّة، امّ القری لعلوم الشریعة و اللغة العربیة و آدابها، الجلد۱۷،العدد۳۳.

www.SID.ir